تيار المثالية والواقعية (idéalisme et réalisme)

مصطلح المثالية متعدد الأبعاد في الفلسفة والأخلاق والفن وعلم النفس حيث تمتد معالجته في الفلسفة من أفلاطون عندما رأى أن المثل هي وحدها الموجودات الحق وما الأشياء غير أشباح لها وهو مصطلح تم تسميته بالمثالية الأنطولوجية (نظرية الوجود)

جاء أفلاطون (427- 347 ق م) بعد سقراط ليقدم تصورا فلسفيا عقلانيا مجردا ولكنه تصور مثالي لأنه أعطى الأولوية للفكر والعقل والمثل بينما المحسوس لا وجود له في فلسفته المفارقة لكل ما هو حسي نسبي وغير حقيقي، لقد قسم افلاطون العالم الانطولوجي إلى قسمين:

العالم المثالي والعالم المادي فالعالم المادي عالم متغير ونسبي ومحسوس وقد استشهد أفلاطون بأسطورة الكهف ليبين بأن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو عالم غير حقيقي، وأن العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فيه الخير الأسمى والذي يمكن إدراكه عن طريق التأمل العقلي والتفلسف، الطاولة التي نعرفها في عالمنا المحسوس غير حقيقية أم الطاولة الحقيقية فتوجد في العالم المثالي وتوجد المعرفة الحقيقية في عالم المثل الذي يحتوي على حقائق مطلقة ويقينية، وكلية أما معرفة العالم المادي فهي نسبية جزئية وسطحية كما ندرك المعرفة في عالم المثل عن طريق التفلسف العقلاني، ومن هنا فالمعرفة حسب أفلاطون تذكر والجهل نسيان ويعني هذا كلما ابتعدنا عن العالم المثالي إلا واصابنا الجهل، لذا فالمعرفة الحقيقية أساسها إدراك عالم المثل وتمثل مبادئه المطلقة الكونية التي تتعالى عن الزمان والمكان، ومن ثم فأصل المعرفته هو العقل وليس التجربة أو الواقع المادي الحسي الذي يحاكي عالم المثل محاكاة مشوهة.

وهكذا ففلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادة وللواقع والحس وتصوره يقوم على عدة ثنائيات العالم المادي في مقابل العالم المثالي وانشطار الإنسان إلى روح من أصل سماوي وجسد من جوهر مادي، وانقسام المعرفة إلى معرفة ظنية محسوسة في مقابل معرفة يقينية مطلقة وعلى المستوى الاجتماعي أثبت أفلاطون

أن هناك عامة الناس، وهم سجناء الحواس الضنية والفلاسفة الذين ينتمون إلى العالم المثالي لكونهم يتجردون من كل قيود الحس والظن وعالم الممارسة.

أما المثالية في الفلسفة المعاصرة فقد تجلت في فرنسا لدى شارل رينوفيد (1815- 1903) صاحب الفلسفة الانتقادية الحديثة تجليها لدى فلاسفة الحرية من أمثال لوكيه و رينو و هاملان واتباعهم حيث يرى رنوفيه ان التفكير الفلسفي يتناول التصورات او التمثلات وان لكل تصور أو تمثل وجهين الممثل والممثل أي الشخص والموضوع، وهما حدان متلازمان فإذا فرضنا أن شيئا ليس ممثلا ولا قابل التمثيل كان هذا الشيء غير موجود بالنسبة إلينا وأصبح من المتعذر أن نعرفه أو نتحدث عنه كما اشتهر في فرنسا أو كناف هاملان بفلسفته الجدلية المثالية التي عني بشرحها باحثون مختلفون نذكر منهم لسلسي ج بيك في انجلترا وليون روبان واندري داربون وبول موي في فرنسا، ومن أشهر تلاميذه أيضا دومينيك بارودي وليون برنشفيك.

أما في إنجلترا فإن الأفكار المثالية نبعت وانتشرت بالاستناد إلى تقليدين رئيسيين أحدهما يتصل بكانت و فيخته وهجل و شلنغ، والأخر يتصل بالمثالية الافلاطونية ولكن هذين التقليديين كليهما يمتزج وينصهر في الاختبارية التي تميز الفكر الأنجليزي بوجه عام، ومن أشهر ممثلي هذه النزعة كولريدج و لكارليل و غورتيه و سترلينغ و غرين و فرانسيس هربرت برادلي و زميله برنارد بوزانكت .

وفي ألمانيا مرت المثالية في الطريق التي رسمها هجل و شوبنهور واشتهر بعد وفاة شوبنهور وذيوع التيار الفينومونولوجي مفكر معروف؛ هو يوكن الذي عني ببحث الهيجلية ، ودعا إلى الإصلاح فانتصرت الهيجلية الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى وظهرت جمعية تحمل هذا الاسم سنة 1928 وعقدت مؤتمرها الأول في البلاد المنخفضة وحمل لوائها كرونر.

وأما في ايطاليا فان المثالية ارتبطت بحركة سياسية تستهدف التحرر وتحقيق الوحدة الايطالية، ودعمها فهذا لمفهوم الدولة منطلق تأويل التاريخ بأسره تركيب السياسة العالمية والغرض الأقصى الذي يترتب على الأفراد عمله و انجازه يتجلى ذلك في مثالية جنتل.

(1875- 1944) وكروشيه (1866 -1952) بوجه خاص حيث يرى جيوفاني جنتيل ان موضوع المعرفة لا يمكن أن يوجد المعرفة ذاتها فعندما نفترض وجود شيء خارجيا فإننا نفترض وجود مجهول تتعذر معرفته.

فالمثالية لا تكن مطلقة إلا إذا كان الواقع فكرة " الفكرة من حيث أنها فكرة خارجية يطرحها الفكر حياله كواقع يسعى إلى معرفته من خارج، بل من حيث أنها فكرة يضعها التفكير فيها من باطن أي فكرة الفكر المفكر.

فالتيار المثالي إذا هو الذي يعطي الأولوية للأفكار أي انه الفكر هو الأساس في الوجود وسابق على المادة، وان الأفكار هي الحقيقية اما الواقع الأشياء فمجرد مظاهر أو ظواهر ثانوية هناك حقائق ثابتة أزلية هي الأصل والأساس والعالم المادي الواقعي وكل ظواهره مجرد انعكاس لها وأن الأشياء من تكوين الفكر ولا وجود لها بشكل مستقل عن الفكر.

الواقعية وحقيقة الوجود:

عكس المثالية الواقعية مفهوم يؤكد على الوجود الانطولوجي للواقع بمعزل عن الفكر أي الموضوعات الخارجية عنا مستقلة عن العقل وبهذا المعنى فهي تتعارض مع الموقف الابستمولوجي للتيارات التصورية الخالصة.

فالنزعة الواقعية ترى أن العالم موجود وحقيقي في مقابل الذات أي أن الأشياء لها وجود منفصل ومستقل عن الوعي أو الفكر والمعرفة تتناول هذه الأشياء فتدرسها بشكل موضوعي عن طريق الإدراك الحسي والعقل وهناك أيضا الاعتقاد بان المعاني الكلية أو المجردة حقيقة ولها وجود موضوعي.

وتفرعت الواقعية إلى تيارات متنوعة ومتناقضة لكن الشكل الشائع منها هي الواقعية التي ترتبط بالمذهب أرسطوطاليس للمعرفة ذات الطابع الامبريقي ، فنجد كارل بوبر(1902 -1994) يدافع بثبات عن موقف واقعي صرف ويعني به الموقف الذي يؤكد بأن معرفتنا تستهدف وجود واقع خارجي عن الوعي ويقول " نكران الواقعية ليس أكثر ولا اقل من جنون العظمة " ويسميها د . ديدرو (1784- 1713) بالعار على العقل الإنساني.

و في معرض دحضه للنزعة المثالية فإنه لا يبتعد كثيرا عن موقف إيمانويل كانط (1724- 1804) حين كتب كانط تتمثل المثالية في تأكيد أنه لا توجد كائنات أخرى باستثناء الكائنات العاقلة أما باقي الأشياء التي نعتقد أننا ندركها بالحدس فليست سوى تمثلات في الكائنات العاقلة التي لا يتطابق معها في الحقيقة أي موضوع يقع في الخارج نقول أن الأشياء تعطى لنا بوصفها موضوعات حواسنا وتقع خارجة عنا فإننا لا نعرف عنها شيئا واننا لا نعرف سوى الظواهر أي التمثلات التي تنتجها فينا بتأثيرها في حواسنا ونعطيها اسم جسم وهي عبارة تشير هكذا وببساطة إلى ظاهر هذا الموضوع المجهول عنا لكنه ليس مع ذلك أقل حقيقة.

الواقعية الحديثة:

ذهب النقاش عامة إلى ظهور حقلين متعارضين الواقعيون والمناهضين للواقعية وكل حقل ينقسم بدوره الى متغيرات متعددة إلى جانب الواقعية التقليدية نجد تطورات حديثة مثل الواقعية المقنعة عند برنارد أسبانيات الواقع موجود لكنه يخفى عن طبيعتنا الحالية كذلك أكدت نانسي كارترايت 1983 وجود واقعية ظاهراتية حيث تؤكد أن القوانين الفيزيائية خاطئة بالمقابل هناك قوانين ظاهراتية هي الصادقة أي تلك التي نتحقق منها عينيا في المختبر او في الطبيعة.

مناهضي الواقعية:

من بينهم الوضعيون الذين يؤكدون ان لا وصول لنا الى الواقع النهائي للأشياء وأنه من الاحرى عدم الاهتمام بها والادائيون الذين يرون أنه لا مجال للوصول إلى الواقع لذلك يجب الاكتفاء بنتائج التجارب والذرائعيون الذين يرون أن النظريات العلمية ليست إلا أدوات علمية يصعب تصديقها إلا إذا كانت متجانسة مع الواقع وكذلك انتقدت من قبل أصحاب النزعة الاسمية بشأن الخلط الذي تقيمه بين الكلمات والواقع وكذلك فعل التيار الفنومنولوجي وخاصة النقد اللاذع من النزعة العقلية والمثالية.